الاتجاهات الحديثة
فى الثقافة الأوردية

للدكتور عمر حليق

لعل أبرز الظواهر فى حاضر الحياة الفكرية فى الباكستان هو العكوف عن التقليد الأعمى والانسياق التام فى تيارات الثقافة الغربية التى كانت تهيمن على الحياة العقلية فى القارة الهندية قبل تقسيمها إلى هند وباكستان

وجدير بالذكر أن أثر الثقافة الغربية مع الإنتاج الفكرى فى القارة الهندية لم يكن فى جلته سيئ النتائج . فقد أولد هذا الأثر اتجاها ملحوظا لتوجيه الحياة العقلية هناك على أساس مناهج البحث العلمى الحديث . بحيث أخذ إنتاج الهند والباكستان يتميز بطابع الدقة وعمق الفكرة التى يلمسها كل من أتيح له الاطلاع على البحوث القيمة [1] التى عالجت مشاكل الساعة سواء فى الدراسات العلمية للتراث الإسلامى والهندوس أو فى الشعر والنثر الأوردى ، أو فى الإنتاج الفنى الذى أخذ ينمو هناك نموا سليما

ولكن الظاهرة الفريدة فى حاضر الثقافة الأوردية هى انفراد حفظة الثقافة فى الباكستان — إثر ميلاد هذه الدولة الإسلامية — فى العكوف عن جعل الحياة العقلية والأدبية والفنية هناك صورة مشوهة للثقافة الغربية ومدى سطحى العمق للتيارات الأدبية والفنية التى تتسرب إلى حاضر الثقافات الآسيوية من أوربا والعالم الجديد

فقد شعر حفظة الثقافة الأوردية فى الباكستان أن الانسياق فى التغذى بالصورة المتوهمة للثقافة الغربية قد أخذ يولد فى الأوساط الثقافية هناك لونا من التشويش قد يؤدى إلى توجيه الحياة الفكرية فى هذه الدولة الجديدة على نمط لا يتمشى مع روائع المجتمع الباكستانى وتراثه الإسلامى وقضاياه السياسية ومشاكله الاقتصادية والاجتماعية

وثمة أمر آخر دفع الباكستانيين إلى مراقبة تيارات الثقافة الغربية المتسربة إلى مجتمعهم مراقبة نبيهة ... ذلك هو ازدياد الشعوب إيمانا بأن دعائم الفكر الغربى لم تستطع أن تثبت صلاحها لتوطيد الاستقرار فى الغرب نفسه وفى المجتمع العالمى الأكبر

ومما فرض على حفظة الثقافة الأوردية فى الباكستان هذا التحفظ فى نشاطهم التوجيهى.. الأحداث السياسية والأوضاع الاقتصادية الطارئة التى جاءت فى أعقاب التقسيم ، وتعرض الدولة الباكستانية الجديدة إلى مشاكل إدارية واجتماعية نشأت عن طبيعة التكوين الجغرافى لهذه الدولة الناشئة ، عن تشرد الملايين من المسلمين الهنود نتيجة للصراع الطائفى الذى صاحب التقسيم ، ونزاع كشمير وقضايا الحدود ومياه الرى المشتركة بين الهند والباكستان وما إلى ذلك من القضايا الفرعية التى لها صلة مباشرة بوضعية الباكستان الإقليمية

وفى مثل هذا الجو وجد الكتاب والشعراء الباكستانيون أنفسهم منساقين إلى معالجة المشاكل الوثيقة الصلة بحياتهم اليومية ، وأن يكتبوا وينظموا فى أمور وأحداث هى من صلب الأحوال والأوضاع التى تكتنف دولتهم ومجتمعهم الجديد

ومن الاتجاهات المتولدة عن هذا المناخ العقلى الجديد ما ألم باللغة الأوردية فى السنوات الأخيرة من تطور . فالمعروف أن نشوء اللغة الأوردية جاء نتيجة لأثر اللغتين الفارسية والعربية على اللهجات الأصلية فى شبه القارة الهندية (وعلى الأخص فى السند والبنجاب) عندما خضعت للحكم الإسلامى ، فأصبحت الفارسية والعربية بمثابة لغة الاشتقاق للغة الأوردية التى تطورت بدورها فوطدت لنفسها استقلالا لغويا سليما

ويبدو أن اللغة الأوردية فى الباكستان أخذت اليوم تقوم بنفس الدور الذى قامت به اللغتان العربية والفارسية منذ قرون . فبعد أن توطد الاستقلال الثقافى للغة الأوردية ، وبعد أن تثبت الكيان لدولة الباكستان أخذت الأوردية تؤثر تأثيرا مباشرا فى اللهجات المحلية فى القطاعات التى تؤلف الأمة الباكستانية

فلقطاع البنجاب مثلا تقليد عريق فى الأدب مدون باللغة البنجابية — تقليد أصوله فى التراث والثقافة الإسلامية التى عاش عليها شعب البنجاب حقبة من الزمن . وتمتاز اللغة البنجابية

---

[1] هذا المقال يستند إلى مادة تكرم بتوفيرها الكتاب مكتب الاستعلامات الباكستانى فى نيويورك

بغزارتها فى الإنتاج الأدبى إجمالا ، فى الشعر الغربى والأدب الشعبى على وجه الخصوص . وللمناطق الشمالية الغربية من الباكستان لغتها المحلية الخاصة — لغة البوشنو — وللتراث الإسلامى فى تلك المناطق دعائم متينة

ولقد وجدنا أن تيارات الثقافة الغربية كانت قبل تقسيم شبه القارة الهندية تجتاح الحياة العقلية هناك ، وأن ذيول التقسيم قد فرضت على المثقفين الباكستانيين رغبة ملحة فى صيانة حياتهم العقلية من عناصر التشويش فى التقليد والانسياق الأعمى ، وفى توجيه هذه الحياة نحو مشاكل الساعة والظروف والأوضاع الطارئة . ولذلك لم يكن لهؤلاء المثقفين بد من أن يمعنوا فى صيانة الدعائم التى يعيش عليها مجتمعهم — لا فى مجال السياسة فحسب ، بل فى أصول الفكر وعناصر الثقافة العامة . فأخذوا يعملون فى يقظة ونباهة على صيانة الثقافة الأوردية من التيارات الضارة التى كانت تتعرض لها — سواء جاءت هذه التيارات من الغرب البعيد أم من الهند القريبة . وهذه النزعة « القومية » فى حاضر الثقافة الأوردية جاءت نتيجة لعوامل منطقية فرضتها طبيعة الأوضاع وفلسفة الحكم وأسس التطور الاجتماعى الذى يعمل أولو الأمر فى الباكستان على تحقيقه بوحى من الإسلام وتراثه . ولذلك لم يجد حفظة الثقافة الأوردية فى الباكستان صعوبة فى تعميمها — على صورتها الجديدة — فى المناطق والقطاعات التى فى لغاتها المحلية قسط وافٍ من التراث الإسلامى — كما هو الحال فى لغتى البنجاب والبوشتو

ولكى يضمن الباكستانيون اطراد النمو فى نهضتهم اللغوية الجديدة — بعد أن اختاروا العكوف عن التأثر بالاستعارة المشوهة من ثقافات الهندوس والأوربيين والأمريكان — اتجهوا إلى تعزيز الروابط اللغوية والثقافية مع الشعوب الإسلامية الأخرى ، وما رغبتهم فى إحلال اللغة العربية مكانة رفيعة فى الباكستان إلا تحقيقا لهذا النحو وتعزيزا لهذه النهضة

وكان من نتائج هذا التنظيم الفكرى أن أخذ الأدب الأوردى فى الباكستان ينمو ويزدهر فلا يقتصر على إحياء الذخائر القديمة فى قالب مجدد أو أن يعالج الحياة الجديدة فى إطار الإبداع الفنى ، بل أخذ يستمد الإيحاء من التراث الأدبى والفنى العريق الكامن فى الثقافات المحلية التى تعيش عليها الجماعات ذوات التقاليد الاجتماعية الزاهية التى تؤلف قطاعات الباكستان الشرقية والشمالية والغربية . فقد ترجمت عشرات من مقطوعات النثر والنظم من هذه اللغات المحلية إلى اللغة الأوردية ، وأخذت الأوردية تتغذى بالصور الفنية الرقيقة التى خلدها شعراء الغزل والأدب الشعبى فى البنجاب، وقصائد البطولة والرجولة التى يتميز بها شعراء البوشتو — بطولة مستمدة من طبيعة الإقليم وأسلوب الحياة الذى يسود فى مناطق الحدود فى الشمال والشمال الغربى

وعلى الرغم من تحفظ المثقفين الباكستانيين فى تأثرهم بالتيارات الفكرية الأجنبية الخاطئة ، فإن إقبالهم على ترجمة روائع الآداب العالمية تشهد لهم بحسن الاختيار وسلامة الذوق

أما طابع الأدب الأوردى الجديد فهو اليوم يتميز باتجاه عام لمعالجة شؤون الناس والحياة فى جلد وتعمق ، وفى إطار العناصر الفنية المكتسبة من هذا التمازج الجديد بين تراث الثقافة الأوردية والذخيرة الفنية من التقاليد الطريفة الزاهية للمناطق التى تؤلف المجتمع الباكستانى

وهذا الطابع الجدى ملموس فى فن القصة القصيرة والقصة الطويلة ، وفى الشعر والنقد الأدبى

وقد أتى على الأدب الأوردى حين كان العنصر الرئيسى المهيمن على إنتاجه يكاد يقتصر على مشاكل اللاجئين والصراع الطائفى الذى عصف بالناس وبعواطفهم فى ذيول التقسيم. ويبدو أن نجاح أولى الأمر والشعب فى الباكستان فى احتضان هؤلاء المنكوبين والتخفيف من محنتهم ، قد ترك أثره فى انطباعات الأدباء والشعراء ، فأصبح تطرقهم إلى هذه المحنة أقل غزارة مما كان عليه قبل بضع سنوات

أما اليوم فقد تطور فن القصة وعلى الأخص القصة القصيرة فى الباكستان على يد نفر من الكتاب الناشئين الذين نافسوا قدامى الكتاب منافسة شديدة . طعموا الأدب الأوردى بنوع سليم من القصة التى تحمل فى ثناياها أشياء أهم من التسلية أو إثارة الغرائز

وفى مجال القصة الطويلة لا يختلف الباكستانيون عن غيرهم فى معظم الشعوب الشرقية التى لم يرسخ فيها هذا النوع من الإنتاج، فالأدب الأوردى كثير من الآداب الشرقية العريقة ليس فى

فى تراثه ذخيرة من القصص الطويلة على النحو الذى عرفته الآداب الغربية ، ولا يزال إنتاج القصه الطويلة فى الباكستان مبعثر الجهد ضئيل القيمة فى الناحية العددية والفنية

أما الشعر فقد أخذ يقتدى بألوان العروض والمواضيع التى تعالج عادة فى الشعر الأوردى الحديث وأخذ الغزل القديم يفقد مكان الصدارة التى كان يحتلها فى الحياة الأدبية وبعض الشعراء الناشئون يتطرفون إلى الغزل التقليدى فى مستهل حياتهم الأدبية إلا أن قرضهم للشعر يتطور فيما بعد ويتخذ طابع التجديد فى أبواب العروض وفى مواضيع النظم وفى الصور الفنية التى تحتويها العقـائد

أما أدب المقال والنقد الأدبى والدراسات التحليلية فيتزعمها ثلاثة من فطاحل الأدباء : مولانا عبد الحق ، ومولانا سيدسليمان ندوى ، ومرزا محمد سعيد ، ويشاركهم فى ذلك الأديب الكبير الشيخ محمد إكرام الذى يتوخى فى دراساته وتحليلة توجيه الإنتاج الفكرى فى الباكستان ليعزز المبادئ والأهداف التى تكتنف هذه الدولة الناشئة بتوطيدها فى ذلك الجزء من العالم الإسلامى

ويضاف إلى هؤلاء نفر من الجامعيين فى معاهد « البنجاب » « والسند » و « دكا » و « لاهور » المنهمكين فى تزويد المكتبة الأوردية بالبحوث والدراسات العلمية فى مختلف ألوان الثقافة الجامعية

ومدارس النقد الأدبى فى الباكستان تدين بالاجتهاد لطائفة من الكتاب والشعراء الذين استهلوا حياتهم الأدبية بقرض الشعر أو إنشاء المقالات ثم ما لبثوا أن انصرفوا عن ذلك إلى معالجة النقد لأنهم فشلوا فى الإبداع الفنى فلأكرهم إنتاج فنى مرموق المكانة ولكن لرغبتهم فى تخصيص اجتهادهم لخدمة النهضة الثقافية فى الباكستان وتوجيه الموهوبين من كتاب الجيل الجديد وشعرائه لبناء نهضة أدبية سليمة الدعائم عميقة الفكر رفيعة فى إبداعها الفنى

وقد أثمر هذا الجهد نتائج طيبة ، فاستطاع الشعر مثلا أن يتخلص من رخاوة مدرسة « طاغور » وابتعادها عن شؤون الساعة وانسياقها فى مشاعر عواطف صلتها بالأدب الحى واهنة ضعيفة . ولم تقتصر هذه الثورة « الشعرية » على موضوع القصيد بل تعدته إلى فن العروض ، فانطلق الشعراء فى استنباط بحور جديدة على نحو مايمارسه بعض الشعراء المحدثين فى حاضر الأدب العربى ، وازداد النظم بالشعر المنثور إلا أن كثيرا من أئمة العروض فى الأدب الأوردى لا يزالون يلجؤون إلى جزالة اللفظ ورصانة التعبير ليسبغوا على الشعر لونا من القوة . وللشعر الرمزى فى الباكستان أتباع ومريدون يغرمون بالإيجاز فى الكلم والبراعة فى اختياره على نحو ماتتطلبه الرمزية

وقد تزعم الأديب البنغالى الكبير « نصر الإسلام » الثورة على مدرسة طاغور ، فقد لمس فيها رخاوة وخنوعا لايتمشى مع مطالب الحياة العقلية الإسلامية ، ودعا نصر الإسلام إلى أن تكون صلة الأدب بالحياة السياسية والاجتماعية وثيقة متينة ، ودواوين هذا الشاعر البنغالى تطفح بالقوة والنظرة العميقة فضلا عن جزالة اللفظ ورقة الموسيقى ومهارة الصياغة وبلاغة التعبير

وفى الشعراء المجددين فى حاضر الأدب الباكستانى شاب يجمع فى القصيد بين الروعة الفنية والنظرة الواقعية للصور والمواضيع التى يعالجها فى شعره — هذا الشاعر هو « عبد الحسين » الذى يمتاز نظمه بالتعابير المستحدثة والنغمة الرقيقة والبلاغة المبسطة التى قال عنها ابن المقفع « إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها »

والتجديد فى الأدب الأوردى فى شرق الباكستان وغربيها لم يتعمد القضاء على تراث الماضى والذخيرة النافعة الكامنة فيه ، بل إن النهضة الفكرية إجمالا توخت استيحاء التراث القديم والكشف عن نفائسه . وهذا الاتجاه ملموس فى البنغال الشرقية أكثر منه فى المناطق الأخرى

وحركة بعث الذخائر الأدبية القديمة لا يقتصر على تراث الإسلام الذى اندثر تحت سيادة الهندوس الثقافية فى تلك البقاع الإسلامية بل تشمل أكثر نفائس الأدب الشعبى الذى سبق انتشار الإسلام . وقد تخطى هذا الإحياء حدود نشر القديم وتبويبه وتحريره فى لغة الجيل فطعمت اللغة الأوردية بأكثر من ألفين وخمسمائة كلمة جديدة من مشتقات عربية وفارسية وجدت سبيلها إلى الأدب الشعبى القديم عن طريق الإسلام ، وارتأى حفظة الثقافة الأوردية فى الباكستان إحياءها وتغذية النهضة الأدبية بها

وإذا جاز للباحث عن حاضر هذه النهضة الثقافية فى